٢

العظام

يقول الحق تبارك وتعالى على لسان نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[١] [مريم: ٤].

هذا القول هو أشبه بمذكرة تفسيرية لبلوغه من الكبر عتياً[٢]. ومفهوم لنا معنى قول الرجل على نفسه أنه بلغ من الكبر عتياً. أي أنه لم يعد يملك القدرة على الإنجاب. وهذه القضية تعطينا سبقاً قرآنياً لكثير من قضايا العلم.

ويثبت العلم الحديث أن العظام هي آخر وعاء لتغذية الإنسان، فإن امتنع الإنسان عن الطعام فالدهون التي في جسمه تمده بالغذاء. وإن مُنع الماء عن الإنسان، فالإنسان تسعون بالمائة من وزنه ماء. وإن انتهى الماء والطعام، فهناك العضلات واللحم. ولذلك يقال في المثل العربي: «سنة أذابت الشحم وسنة أفنت اللحم وسنة محت العظم». فكأنما البداية كون التغذية من الشحم، ومن بعد ذلك من اللحم، ومن بعد الشحم واللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم. وهذه هي التي

---

(١) قال ابن الجوزي: قال الفراء وغيره: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾، ووَهِن، بفتح الهاء وكسرها؛ والمستقبل على الحالين كليهما: يَهن. وأراد أن قوة عظامه قد ذهبت لِكَبره؛ وإنما خصّ العظم، لأنه الأصل في التركيب.
وقال قتادة: شكا ذهاب أضراسه.
قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ يعني: انتشر الشيب فيه، كما ينتشر شعاع النار في الحطب، وهذا من أحسن الاستعارات.
زاد المسير [٥/ ١٤٥]

(٢) قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨] قال الماوردي: فيه ثلاثة أقاويل:
أحدها: يعني سناً، قاله قتادة.
الثانية: أنه نحول العظم، قاله ابن جريج.
الثالث: أنه الذي غيره طول الزمان إلى اليبس والجفاف، قاله ابن عيسى، قال الشاعر:
إنما يعذر الوليد ولا يعذر من كان في الزمان عتياً
النكت والعيون [٣/ ٣٥٧]

جاءت في دعاء نبي اللّه زكريا عليه السلام لما قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾[(١)]. إن آخر مخزن للتغذية لم يعد به ما يمكن أن يستمد منه زكريا طاقة الإنجاب، وهذا ما يوضح لنا عدم امتلاك سيدنا زكريا لمبررات الإنجاب.

ما الذي يغذيه العظم من الجسم؟ إنه يغذي المخ، والمخ هو السيد الأعلى الذي يدير كل جارحة في الإنسان، وكل جارحة تعمل في خدمته. والمخ بطبيعة الحال يعيش كل عمره في خدمة الجوارح، فهو الذي يرتب لها قدرات العمل والتفكير والإحساس والسلوك. والسيد وهو المخ ما دام موجوداً فكل شيء يتم تعويضه. ولذلك فهم يحاولون تعريف الموت طبياً فيقولون: إن الموت لا يحدث ما دامت خلايا المخ حية.. ولكن إن ماتت خلايا المخ فهذا هو الموت. ولذلك فالجسم يمد السيد «المخ» بكل إمكانيات الحياة. ومن عجيب الأمر أن الإنسان سيده له مكان في أعلى الجسم ـ وهو المخ ـ داخل الجمجمة.. أما النبات فسيده في الجذور. فالجذور إن لم تجد مياهاً تذيب العناصر في الأرض فهي تأخذ من الورق غذاءها. وبعد أن يذبل الورق فالنبات يأخذ غذاءه من الفروع الصغيرة، وعندما تذبل الفروع الكبيرة. لا ينقذ النبات إلا مجيء بعض من الماء للجذور. وكذلك المخ بالنسبة للإنسان.

---

(١) قال الماوردي: وفي ذكره وهن العظم دون اللحم وجهان:

أحدهما: أنه لما وهن العظم الذي هو أقوى كان وهن اللحم والجلد أولى.

الثاني: أنه اشتكى ضعف البطش، والبطش إنما يكون بالعظم دون اللحم.

النكت والعيون [٣/ ٣٥٤]

ومن معجزاته ﷺ
إخباره عن مقتل العنسي
كذاب اليمن ليلة قتله

كان في اليمن كاهن مشعوذ اسمه عبهلة بن كعب، ويقال له: ذو الخمار، أو ذو الحمار في رواية أخرى[١]، وهو الذي يعرف في كتب التاريخ الإسلامي باسم الأسود العنسي. وهو أحد الكذابين الذين ذكرهما النبي ﷺ في قوله: «إني رأيت البارحة فيما يرى النائم أن في عضدي سوارين من ذهب، فكرهتهما فنفختهما فطارا، فأولتهما هذين الكذابين صاحب اليمامة وصاحب اليمن»[٢].

وكان لهذا الكاهن حمار روّضه صاحبه رياضة من لون خاص، تماماً كتدريب القرود، فكان يقول له «قف» فيقف، ويقول له «سر» فيسير. وإذا قال له اسجد خفض الحمار رأسه[٣]. وزعم هذا الكاهن أن ما يفعله حماره معجزة.

ويروى أن الرجل كان يقال له: «ذو الخمار»، أي يرتدي خماراً على وجهه.

---

(١) قال ابن حجر: وكان يقال له أيضاً: ذو الخمار بالخاء المعجمة؛ لأنه كان يخمر وجهه، وقيل: هو اسم شيطانه.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحى إليّ في المنام أن انفخهما، فنفختهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة».

أخرجه البخاري [٣٦٢١، ٤٣٧٣، ٤٣٧٥، ٤٣٧٩]، ومسلم [٢٢٧٤].

(٣) قال ابن حجر: وكان الأسود قد خرج بصنعاء وادعى النبوة وغلب على عامل صنعاء المهاجر بن أبي أمية، ويقال: إنه مرّ به فلما حاذاه عثر الحمار فادعى أنه سجد له، ولم يقم الحمار حتى قال له شيئاً فقام.

قال الكرماني: كان يقال للأسود العنسي: ذو الحمار؛ لأنه علم حماراً إذا قال له: اسجد، يخفض رأسه.

فتح الباري [١٤/٤٥٨]

obeikandl.com

ومن العجيب أن أيًا من أتباعه لم يطالبه بعلامة صدقه في زعمه النبوة. مع أن أول شيء للتأكد من صحة قول أي إنسان: «أنا نبي» أن يسأله الناس عن علامة الصدق في دعواته، وأن يتعرفوا على معجزته. لكنا لا نجد ذلك في مرتد أبداً. لماذا؟ وكيف لا يسأل المرتد المبلغ عن نفسه أنه نبي في معجزته، وفي صدق رسالته؟ إن ذلك هو ما يحدث مع أي رسول. فكيف يؤمن أناس بفرد بدون معجزة؟

هنا نذهب إلى الجانب النفسي من الأمر ونقول: إن التدين أمر فطري، والإنسان الذي ليس له دين يغضب ويحزن عندما تقول له: «يا قليل الدين» ولذلك تجد أن المبطل من هؤلاء يقول: «أنا على دين». إنه لا يتصور أنه مبطل بلا دين. ولذلك قال الحق: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] [الكافرون: ٦].

فكأن الأصل في الفطرة الأصلية أن الدين ضرورة للإنسان. وما دام الأمر كذلك، فلماذا لا يقبل كل الناس على الدين؟

لأن الدين ليس مجرد اسم أو صفة، ولكنه التزام بتكاليف. إن الذي يجعل الناس في خشية من الدين هو مشقة التكاليف. لذلك فعندما يأتي إنسان ويقول: «أنا نبي، ومعجزتي أنني خففت عليكم الصلاة والزكاة والصيام، وأبحت لكم النظر إلى نساء بعضكم». لا بدّ أن لعاب أصحاب القلوب الخفيفة التي لا بصيرة لها سيقولون: إن مثل ذلك لدين جميل، لقد أرضوا غرور أنفسهم بأنهم متدينون، وأنه في ذات الوقت أحلهم من التزامات التدين، وتكاليفه الشاقة على نفوسهم المريضة.

ولذلك يتعجب المرء من أتباع مدعي النبوة منذ الزمن القديم وحتى عصرنا هذا، إننا لم نجد أحداً وقف أمام أي مدع وقال له: ما معجزتك؟ ولكن الكل سأل: ما منهجك؟ وعندما سأل أهل اليمن ذا الخمار: ما منهجك؟ كانت إجابته أنه يبيح لهم كل المحظورات، بداية من تقليل الصلاة والزكاة مع إباحة الاختلاط بنساء الغير. واستراح البعض لذلك المنهج وذهلوا عن طلب المعجزة. وكل الذين ادعوا النبوة كانوا من هذا الصنف. ولذلك نجد أن كل مدع للنبوة يحاول التخفيف من المنهج، فهناك من خفف الزكاة. وجاءت امرأة اسمها سجاح خففت الصلاة، وجاء ثالث ليخفف

---

(١) قال أبو حيان: أي لكم شرككم ولي توحيدي، وهذا غاية في التبرؤ، ولما كان الأهم انتفاءه عليه الصلاة والسلام من دينهم، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه. ولما تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ على سبيل المهادنة، وهي منسوخة بآية السيف.

البحر المحيط [١٠/ ٥٦١]

الربا. لكن لم يأت أحد منهم «بمعجزة» تدل على أنه رسول من اللَّه.

وعندما جاء ذو الخمار، أو ذو الحمار، وهو كما قلنا كاهن مشعوذ، وكان كما يصفه المؤرخون يسبي قلوب من سمع منطقه، وكان يريهم الأعاجيب، واستطاع بذلك أن يستولي على ملك اليمن، وجعله يعلن ارتداده، وغلب على صنعاء، وعلى ما بين أعمال الطائف إلى البحرين، وجعل يستطير استطارة الحريق.

ثم لما شاء اللَّه تعالى نهاية هذا الكاهن دخل عليه رجل ديلمي اسمه فيروز فقتله على فراشه. والمسافة بين اليمن والمدينة طويلة، لكن رسول اللَّه ﷺ يقول في ليلتها: «قتل الدجال بيد رجل مبارك من أهل بيت مباركين. قيل: ومن هو؟ قال: فيروز، فاز فيروز»[1]. ثم يأتي خبر قتل مدعي النبوة بعد إخبار رسول اللَّه ﷺ لأصحابه.

❁ ❁ ❁

---

(١) قال ابن حجر: قال عبيد اللَّه بن عبد اللَّه سألت عبد اللَّه بن عباس عن رؤيا رسول اللَّه ﷺ التي ذكر، فقال ابن عباس: ذكر لي أن رسول اللَّه ﷺ قال: «بينا أنا نائم أريت أنه وضع في يدي سواران من ذهب ففظعتها وكرهتهما، فأذن لي فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان».

أخرجه البخاري [٤٣٧٩]

فقال عبيد اللَّه: أحدهما الأسود العنسي الذي قتله فيروز باليمن، والآخر مسيلمة الكذاب.

روى يعقوب بن سفيان والبيهقي في «الدلائل» من طريقه من حديث النعمان بن بُزُرُج بضم الموحدة وسكون الزاي ثم راء مضمومة ثم جيم قال: خرج الأسود الكذاب، وهو من بني عنس يعني بسكون النون، وكان معه شيطانان يقال لأحدهما: سحيق بمهملتين وقاف مصغر، والآخر شقيق بمعجمة وقافين مصغر، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس، وكان باذان عامل النبي ﷺ بصنعاء فمات، فجاء شيطان الأسود فأخبره، فخرج في قومه حتى ملك صنعاء وتزوج المرزبانة زوجة باذان، فذكر القصة في مواعدتها دادويه وفيروز وغيرهما، حتى دخلوا على الأسود ليلاً؛ وقد سقته المرزبانة الخمر صرفاً حتى سكر، وكان على بابه ألف حارس. فنقب فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا، فقتله فيروز واحتز رأسه، وأخرجوا المرأة وما أحبوا من متاع البيت، وأرسلوا الخبر إلى المدينة، فوافى بذلك عند وفاة النبي ﷺ. قال أبو الأسود عن عروة: أصيب الأسود قبل وفاة النبي ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحي فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر إلى أبي بكر رضي اللَّه عنه، وقيل: وصل الخبر بذلك صبيحة دفن النبي ﷺ.

فتح الباري [٨/ ٤٢٧]

obeikandl.com